التعليم واللغة والهوية في الاستراتيجيات الانفصالية لحزب العمال الكردستاني / حزب الاتحاد الديمقراطي في سوريا

إبراهيم آيدن

> إن الحلول القائمة على تقسيم المجتمع وفق الانتماءات العرقية والطائفية لا تجلب السلام والأمن، بل بالعكس تسبب الصراعات والدمار من خلال تأجيج الانقسامات وزيادة تأزم المشاكل.

ما يزال حزب العمال الكردستاني / حزب الاتحاد الديمقراطي / وحدات حماية الشعب الإرهابية تسيطر على ما يقرب من ثلث مساحة سوريا جراء الحرب الأهلية السورية المتواصلة حتى الآن، وهذا التشكيل يبرر سيطرته على المناطق المحتلة بـ "الشرعية الظاهرية" التي يزعمها بذريعة القتال ضد داعش. حيث استولى هذا التنظيم على نظام التعليم بالكامل من خلال السيطرة على المدارس التابعة للنظام السوري في هذه المناطق، وأدخل ممارسات خاصة في التعليم تتماشى مع أيديولوجية التنظيم وأهدافه. لذلك فإن تحليل استراتيجيات هذا التنظيم الإرهابي في سوريا يعد جهداً وعملاً مهماً.

بناء التعليم وفق المحور الأيديولوجي لحزب العمال الكردستاني / حزب الاتحاد الديمقراطي

تم تغيير محتويات الدروس في صفوف المدارس الابتدائية والإعدادية وفقا للمنهج الذي حددته التنظيمات الإرهابية بمساعدة من قوات سوريا الديمقراطية التي يقودها حزب العمال الكردستاني / حزب الاتحاد الديمقراطي، وذلك بدءً من عام 2016. كما بدأت هذه التنظيمات في تطبيق نفس المنهج في الصفين العاشر والحادي عشر في عام 2018, وفي الصف الثاني عشر في عام 2020. يبدأ التعليم اليومي في المدارس المذكورة كل صباح بعبارات تعبّر عن ولاء الطلاب لزعيم منظمة حزب العمال الكردستاني الإرهابية وتعكس أيديولوجية التنظيم. أما الدروس فهي إجبارية وتضم محتوى يعتمد على العرقية والعسكرية ومعادٍ للإسلام، ويتم تدريس كتب تحتوي بعض أجزائها على

اقتباسات من عبد الله أوجلان زعيم التنظيم الإرهابي. كما أن هنالك تطورات مماثلة في التعليم العالي، حيث تم تأسيس جامعات في مناطق مثل محافظة الحسكة التي يسيطر عليها حزب العمال الكردستاني/حزب الاتحاد الديمقراطي، ويتم إدارة هذه الجامعات بطريقة غير مرتبطة بوزارة التعليم التابعة للنظام السوري. وتمتلئ هذه الجامعات بأعلام ورايات حزب العمال الكردستاني، ويتم تدريس مواد أيديولوجية ودعاية للتنظيم في الكتب التي طبعت باللغة الكردية.

تحصل المنظمة الإرهابية على توقيع وتعهد من المدرسين الذين يعملون في المناطق التي تحتلها بعدم العمل في المدارس التي تقع تحت سيطرة النظام السوري، كما تعاقب وتعتقل المدرسين الذين يرفضون تدريس منهج التنظيم أو يرفضون الامتثال إلى هذا النظام، ويقومون بتدريس المناهج

وفق النظام القديم، وتجبر بعض المدرسين على الالتحاق بصفوف التنظيم بإدراجهم في لائحة "الخدمة العسكرية الإجبارية" في المنظمة، وتفصل غير المشاركين من المدارس. وفيما يتعلق بموضوع الخدمة العسكرية الإجبارية، يقوم أعضاء المنظمة بالتجول على المنازل في المناطق المحتلة والخاضعة لسيطرتهم، ويسجلون الأشخاص الذين تتراوح أعمارهم بين 10 و30 عاما للخدمة العسكرية الإجبارية, ويمارسون العنف ضد العائلات التي لا تسمح لأطفالها بالتعلم في المدارس التابعة للتنظيم. أمّا الأطفال والشباب الذين تم تسجيلهم ونقلهم إلى التعليم بالقوة ووصلوا إلى تدريب كافٍ فيتم إدخالهم ضمن المجموعات المقاتلة في التنظيم. وهناك تقرير أعدته الشبكة السورية لحقوق الإنسان يوثق انتهاكات حقوق المدنيين في الفترة من 1 يناير/ كانون الثاني إلى 15 فبراير/ شباط 2021 في محافظات الحسكة والرقة ودير الزور التي يسيطر عليها حزب العمال الكردستاني / حزب الاتحاد الديمقراطي, يشير هذا التقرير إلى أن التنظيم الإرهابي قام بالاعتقال التعسفي بحق 27 مدرساً اعتقلوا على خلفية قيامهم بتدريس المناهج التعليمية التابعة للنظام السوري بدلاً من مناهج قوات سوريا الديمقراطية, واعتقل 34 مدرساً بهدف تجنيدهم إجبارياً ضمن التنظيم, كما رصد التقرير عمليات ملاحقة وفصل من العمل بحق 550 مدرساً رفضوا الالتحاق بصفوف التنظيم الإرهابي.

اللغة والهوية في أيدولوجية التعليم الانفصالي

تعتبر العربية هي اللغة الرسمية في سوريا والمعتمدة في الجامعات والمدارس الحكومية هناك. إلّا أن التنظيم الإرهابي قام بطباعة الكتب المدرسية باللغات الكردية والسريانية والإنجليزية ويتم تدريس المناهج بهذه اللغات. وهي بذلك لا ترتبط في مؤسساتها التعليمية بأي شكل من الأشكال بالمؤسسات التعليمية التابعة للنظام وتعتمد على خطاب "الحق في التعليم بلغته" وبذلك تسعى في

البداية إلى إقحام شعوب المنطقة في مرحلة انفصالية في إطار "مجتمعات اللغات المختلفة". وفي نفس السياق، وبنهج سياسي بحت، ترى تلك المنظمات بأن اللغة العربية التي تعتبر اللغة الرسمية والمسيطرة في البلاد على أنها وسيلة لإلغاء الهوية عن المجموعات العرقية غير العربية المختلفة، وتقوم بتشويه سمعة اللغة العربية وتبرز اللغات المحلية والعرقية في جميع مجالات الحياة الاجتماعية من التعليم إلى الإعلام والصحافة ومن التجارة إلى الرياضة. وهكذا، تنشأ تقسيمات وفق اللغة، ونتيجة لذلك سيتم إنشاء مناطق جغرافية ذات لغة واقتصاد وهيكل إداري مستقل وسيتم فتح الطريق أمام التقسيم الفعلي. وفي هذا السياق، يبدو أنه ستظهر في الفترة المقبلة مطالب تتعلق بدستور فيدرالي يأملون في تمهيد الطريق له لإنشاء هيكلية مستقلة لاسيما في شرق الفرات. ومن الواضح أن هذا الوضع قد يعرّض النظام السوري لخطر تبني دستور فيدرالي.

جدير بالذكر أن من بين مقترحات الحل السياسي لسوريا، هناك سيناريوهات سوريا المقسمة إلى مناطق حكم ذاتي وسوريا الفيدرالية، وفي كلا السيناريوهين، يشار إلى وجود إدارة مستقلة أو فيدرالية لحزب العمال الكردستاني / حزب الاتحاد الديمقراطي في شرق الفرات. كما أن من المعروف أيضا أنه خلال الاجتماعات التي تم عقدها بين وحدات حماية الشعب والنظام السوري عام 2017، طلبت وحدات حماية الشعب "منطقة فيدرالية بضمان دستوري". بالإضافة إلى ذلك، لا يجب إغفال أن بعض الدول العربية والغربية لا تعارض مثل هذه التعديلات الدستورية التي تسمح لوحدات حماية الشعب بتشكيل كيان مستقل في شمال سوريا. هناك أمثلة كثيرة على أن الحلول القائمة على تقسيم المجتمع وفق الانتماءات العرقية والطائفية لا تجلب السلام والأمن، بل بالعكس تسبب الصراعات والدمار من خلال تأجيج الانقسامات وزيادة تأزم المشاكل. ومن الواضح للعيان أن تعديلاً مشابهاً في بلد مثل سوريا حيث يعيش العديد من الأصول العرقية المختلفة مثل العرب والأكراد والآشوريين والتركمان والأرمن والعديد من الجماعات الدينية مثل المسلمين والمسيحيين والدروز والإسماعيليين مع بعضهم البعض، من شأنه أن يقوّض السياسة والأوضاع الاجتماعية في سوريا ما بعد الحرب.

من المجالات الأخرى التي استغلها حزب العمال الكردستاني / حزب الاتحاد الديمقراطي سياسات الهوية المتبعة في سوريا. حيث تعتبر لغات هذه الشرائح التي يتم تحديدها من خلال اختلاف أصولها العرقية من أجل إشعال وإثارة فتنة الهويات المقسمة والأيديولوجيات المسببة للانقسامات. بعبارة أخرى، يتم تحويل اللغة إلى أداة يتم من خلالها إثارة العنصرية العرقية. وبذلك، فإن هذه الجهود تكتسب بعداً مختلفاً عن الحفاظ على الجماعات العرقية واللغات والثقافات التي تساهم في تشكيل وتنمية مكونات المجتمع، وقد تهدد الهوية الوطنية وأمن ذلك البلد من خلال تدمير المشاعر والأفكار الجماعية التي تشكل وحدة وهوية

المجتمع. وتكون النتيجة الطبيعية لمثل هذا التقسيم في المجتمع بداية على شكل تفككات ثم تظهر بعد ذلك على شكل صراعات وانقسامات. وهذا بالضبط ما يسعى إليه حزب العمال الكردستاني / حزب الاتحاد الديمقراطي في سوريا. فمنذ اليوم الذي ظهر فيه حزب العمال الكردستاني باعتباره الفاعل الأخير في "الانفصالية الإقليمية"، أولت هذه المنظمة الإرهابية أهمية كبيرة لقضية اللغة والسياسات التمييزية التي سيتم إثارتها على أساس اللغة. وفي الوقت الذي يقوم فيه التنظيم الإرهابي من خلال القنوات التلفزيونية التي أنشأها بالدعاية له ضد جميع الأكراد الذين يعيشون في دول المنطقة، هو يهدف إلى جعل اللغة الكردية مفهومة ومستعملة من قبل جميع الأكراد، واعتمد أيديولوجيات تقسيمية للمجتمع ووضعها موضع

التنفيذ في جميع مجالات الحياة، وبالتالي يساهم في تمكين فئات في المجتمع من العيش تهدف إلى عزل الدول بشكل كامل عن هويتهم الوطنية الحقيقية. إن ما يحدث في سوريا هو مجرد مشهد من ذلك. ولم تكن المنظمة الإرهابية قادرة على اغتنام الفرصة لتنفيذ هذه الأنشطة في سوريا إلّا من خلال الحرب الأهلية.

إن أهم مرحلة يجب متابعتها هنا هي محتوى الدستور الجديد والتطورات التي ستحدث وفقا لذلك الدستور. حيث أن من المتوقع أن يستخدم حزب الاتحاد الديمقراطي / وحدات حماية الشعب تأثيره ويضغط من أجل أن يحتوي الدستور الجديد على مواد تسمح باستخدام اللغة كعنصر من عناصر الانفصال العرقي والقدرة على الانخراط في الأنشطة الإعلامية والصحفية بلغات عرقية مختلفة. ويمكن الإفادة هنا بأن استخدام اللغات الأم في التعليم يمكن أن يساهم في القدرة على التفكير المستقل والتعلم، وأن استخدام اللغات واللهجات المختلفة التي يستعملها الناس في حياتهم اليومية في وسائل الإعلام يمكن أن يكون له تأثير إيجابي على حماية وتنمية الثقافات الإقليمية والتقليدية. ومن أجل تحقيق هذا الغرض، قد لا يكون هناك ضرر في الضمان الدستوري لهذه الحقوق. لكن، لا يمكن تفسير أن أي من الأحكام الواردة في الدساتير بطريقة تجعل من الممكن القيام بنشاط يهدف إلى تدمير الحقوق والحريات الأساسية الأخرى الممنوحة للدولة أو الأفراد بموجب الدستور. وحتى لو ضمنها الدستور، فلا يمكن إغفال حقيقة تفسير أن الحق والحرية لا يمكنهما تقويض وحدة الدولة ووحدة الأمة، ولا يجب استخدامهما كأداة لفعاليات تهدف إلى إزالة وتدمير النظام القائم.

هذا "حق" و"ضرورة" من أجل إدارة بلد ما.

ولو أخذنا بعين الاعتبار كل هذه الأمور، لا يجب أن ننسى أن الهدف الحالي والتنظيمي الإرهابي لحزب العمال الكردستاني / وحدات حماية الشعب في المنطقة، هو تفتيت المجتمع السوري في إطار خططه لفترة ما بعد الحرب، وهنالك مساعٍ واضحة لتحقيق ذلك، لا سيما من خلال استخدام اللغات المختلفة، ولا ينبغي إغفال حقيقة أن "من الممكن أن يواجه العرب أيضا خطر الاندثار من المناطق التي تندثر فيها اللغة العربية". وهذا أمر مصيري لسلامة أراضي سوريا ووحدتها السياسية بعد الحرب. ■

إبراهيم آيدن: لواء سابق في الجيش التركي، له دراسات في مجالات مكافحة الإرهاب والشؤون الأمنية-العسكرية والاستراتيجية، مستشار رئيس مركز أورسام.